الفصل الأول
الأكثرية على مستوى العقيدة

● المبحث الأول : مشكلة الكفر بنوعيه

توطئة : مفهوم الكفر

الكفر من جهة اللغة يعني الستر والتغطية، ومنه أخذت كلمة الكفر لتدل في العقيدة على تغطية الحق، وينتج أن كفر العقيدة قد يكون سترا لأمر من أمور الغيب على الرغم مما يدل عليه من دلائل عقلية و نقلية، كالكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد يكون سترا لنعم الله على خلقه وجحودا ونسيانا لها، مما يؤدي إلى قلة الشكر أو عدمه.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة تعبيرا جامعا بقوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ [عبس: ١٧] ، إذ أن « تعريف (الإنسان) يجوز أن يكون التعريف المسمى تعريف الجنس فيفيد استغراق جميع أفراد الجنس، وهو استغراق حقيقي وقد يراد به استغراق معظم الأفراد بحسب القرائن فتولد بصيغة الاستغراق إدعاء لعدم الاعتداد بالقليل من الأفراد، ويسمى الاستغراق العرفي في اصطلاح علماء المعاني، ويسمى العام المراد به الخصوص في اصطلاح علماء الأصول ... فقوله : ﴿ **مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ تعجيب من كفر جنس الإنسان أو شدة كفره وإن كان القليل منه غير كافر... فغالب الناس كفروا بالله من أقدم عصور التاريخ وتفشى الكفر بين أفراد الإنسان وانتصروا له وناضلوا عنه، ولا أعجب من كفر من ألّهوا أعجز الموجودات من حجارة وخشب أو نفوا أن يكون لهم رب خلقهم... ومعنى شدة الكفر أن كفره شديد كمًّا وكيفا ومعنى ، لأنه كفر بوحدانية الله وبقدرته على إعادة خلق الأجسام بعد الفناء، وبإرساله الرسول، وبالوحي إليه

ﷺ، وأنه كفر قوي لأنه اعتقاد قوي لا يقبل التزحزح، وأنه مستمر لا يقلع عنه مع تكرر التذكير والإنذار والتهديد »[1] .

ولا شك أن الاستغراق هنا كما يشمل جنس الأفراد بالأغلبية، يشمل كذلك نوعي الكفر، كفر بالغيب وكفر بالنعمة، مما يؤدي إلى قلة الشكر على فضل الله، ولذلك استدعى الأمر الفصل بين نوعي الكفر.

* * *

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ج ٣٠ ص ١٢٠ - ١٢١ - الدار التونسية والمؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر -

● **المطلب الأول : الكفر بالغيب.**

عند تصفح كتاب الله – بحثا عن مواقف البشر من مسألة الكفر والإيمان- قد نفاجأ بالنتيجة، إذ نجد القرآن ينبئنا بقول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٨٩].

والآية بهذه الصيغة تفيد أن الأكثرية مصرة على انتهاج سبيل الكفر على الرغم من أبلغ الآيات الخالدة التي صرَّفها الله للناس ليتبعوا الهداية إذا استعملوا عقولهم وتدبروا خطاب الله إليهم، ولكن الطبائع البشرية يغلب عليها طابع العناد والتكبر واتباع الأهواء مما يجعلهم أميل إلى الكفر لما يجدون فيه من تحرر من قيود المسؤولية التي يقتضيها الإيمان بوجود الله واليوم الآخر، وما يستتبع ذلك من الخوف من الحساب والعقاب.

ويتبين لنا ذلك من التعليق الذي يأتي في الآيات الموالية لهذه الآية من سورة الإسراء إذ جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴾ [الإسراء - ٩٠-٩٢] ... ﴿ **وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء : ٩٧-٩٩].

فهذه الآيات التسع قد جاءت لتبين طبيعة الناس التي اكتسبوها فخالفت الفطرة وخرجت بهم عن طريق الجادة فراحوا يطلبون تلك الخوارق المادية

ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية أو يتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج، لم ينفعهم تصريف القرآن للأمثال والتنويع فيه لعرض حقائقه في أساليب شتى تناسب شتى العقول والمشاعر، وشتى الأجيال والأطوار[1] ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا** ﴾.

هكذا تنتهي الآيات التسع لتقرر في النهاية النتيجة التي حكمت بها الآية الأولى التي قضت بأن الأكثرية تميل نحو الكفر بقوله تعالى : ﴿ **فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا** ﴾ ، وبذلك يتبين أن علة التعلق بالكفر هي الظلم للحقيقة والظلم للفطرة التي فطر الناس عليها تلك الفطرة النقية التي جبل الإنسان عليها كما بينها قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٧٢ – ١٧٣] الفطرة السليمة هي حقيقة ما جبل عليه الإنسان، ولكن الغفلة والنسيان من جهة، والإرث المعوج من جهة ثانية هو الذي يطبع النفوس على الكفر والإلحاد وإلا فإن الله قد جعل «للهدى وللضلال سننا وترك الناس لهذه السنن يسيرون وفقها ويتعرضون لعواقبها، ومن هذه السنن أن الإنسان مهيأ للهدى وللضلال وفق ما يحاوله لنفسه من السير في طريق الهدى أو طريق الضلال فالذي يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه يهديه الله وهذا هو المهتدي حقا لأنه اتبع هدي الله، والذين يستحقون الضلالة بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته لا يعصمهم أحد من عذاب الله ﴿ **فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ** ﴾ ويحشرهم يوم القيامة في صورة مهينة مزعجة ﴿ **عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ** ﴾ يتكفأون ﴿ **عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ﴾ مطموسين محرومين من جوارحهم التي تهديهم من هذا الزحام جزاء بما عطلوا هذه الجوارح في الدنيا عن إدراك دلائل الهدى»[2].

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج ٥ ص ٢٢٥٠ دار الشروق .

(٢) سيد قطب نفسه ٢٢٥١ .

إن الأكثرية إذن قد اتخذت لنفسها منهجا فلم ينفع فيها دعوة ولا أداةعقل؛ لأنهم عطلوا أسباب الفهم بأن أغلقوا سمعهم وبصرهم وقلوبهم فلا يتسرب إليها وعي ولا يتشوفون إلى صوت الحق مهما كان مصدره، لأنهم كذبوا بآيات الله التي هي المرجع الوحيد الذي يملك وسائل الهداية.

وقد بينت آية أخرى من سورة الفرقان هذه القضية حين جعلت التنبيه يشير إلى الهدف من تصريف الآيات هو التذكير، فقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

فالقرآن صرَّفه الله إلى الناس جميعا ليتذكروا ولكنهم أبوا إلا أن يصروا على الكفر، وصيغة « كفورا » تفيد هنا بطاقتها الصرفية الإصرار، ويدعم ذلك صيغة الحصر في التركيب الذي بنيت عليه هذه الآية فجاءت موافقة في بنائها للآيات السابقة وهي على التوالي:

١ ـ ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٨٩].

٢ ـ ﴿ **فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الإسراء: ٩٩].

٣ ـ ﴿ **فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً** ﴾ [الفرقان: ٥٠].

فالآيات الثلاث صيغت تراكيبها على طريقة واحدة تكشف عن استقرار هذه الحال في حياة البشرية من لدن آدم إلى يومنا هذا.

وهذا ما يفسر كون أكثر الأمم ـ التي جاء إليها الأنبياء والرسل دعاة ـ معرضة عن الدعاة، نافرة من سبل الهداية، متمسكة بشريعة الغاب معتصمة بحبل الشيطان، وكانت النتيجة دائما هي الاستئصال الذي عبرت عنه الآيات التي مهدت لهذه القاعدة القائمة على السنن التي عرضتها سورة الفرقان، يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً * وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً * وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾

[الفرقان: ٣٥-٣٩]

فمن الواضح أن الآيات لا تشير إلى قوم فرعون ونوح وعاد وثمود وأصحاب الرسّ فحسب، ولكنها تبين أن هناك قرونا كثيرة كانت بين هذه الأقوام ونالت ما نالته هذه من الاستئصال الذي لا يعبر إلا عن موقف الأكثرية من الرسائل السماوية ومن الدعاة في كل عصر ومصر، على مدى الحركات التاريخية للبشرية، فالكفر ديْدَنُهم، به يعيشون وعليه يموتون أو يُستأصَلون .

والسبب في ذلك تعرضه آيات الفرقان كما عرضته آيات الإسراء واحد لا يتغير ولا يتبدل، إنه الأهواء وتعطيل وسائل المعرفة والتلقي للكتاب المبين وصوت الحق ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً** ﴾ [الفرقان : ٤٣-٤٤] .

فالسبب يكمن في بنيتهم النفسيّة « فالعلة فيهم أنفسهم فهم يجعلون من هواهم إلها يعبدونه، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان ... وهو تعبير عجيب يرسم نموذجا عميقا لحالة نفسية بارزة حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة والمقاييس المعلومة والموازين المضبوطة وتخضع لهواها وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها فلا تخضع لميزان ولا تعترف بحد، ولا تقتنع بمنطق متى اعترض هواها الطاغي الذي جعلت منه إلها يعبد ويطاع... ثم يخطو خطوة ... فيسويهم بالأنعام التي لا تسمع ولا تعقل ثم يخطو الخطوة الأخيرة فيدحرجهم من مكانة الأنعام إلى درك أسفل وأحط... بل إن الإنسان حين يتجرد من خصائصه هذه ليكونن أحط من البهيمة، لأن البهيمة تهتدي بما أودعها الله من استعداد، فتؤدي وظائفها أداء كاملا صحيحا، بينما يهمل الإنسان ما أودعه الله من خصائص ولا ينتفع بها كما تنتفع البهيمة »[1] .

حين يعطل الإنسان وسائل التلقي سيعجز حتما عن الاستفادة من وسائل الذكر وأدلته المسموعة والمشاهدة، وبذلك يفقد أسباب العودة إلى الطريق المستقيم، وهذا هو حال معظم أهل الأرض، إذ حين نفكر في ستة ملايير شخص

---

(١) في ظلال القرآن ج١٩ ص ٢٥٦٦

فوقها، لانجد المهتدين منهم يزيدون عن أقل من الخمس والخمس كثير في ما يحكم به عالم الشهادة، ونحن نجد في تعبير الآية إنصافا «إذ يذكر» ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ ولا يعمم، لأن قلة منهم كانت تجنح إلى الهدى أو تقف عند الحقيقة تتدبرها، فأما الكثرة التي تتخذ من الهوى إلها مطاعا، والتي تتجاهل الدلائل وهي تطرق الأسماع والعقول فهي كالأنعام، وما يفرق الإنسان من البهيمة إلا الاستعداد للتدبر والإدراك والتكيف وفق ما يتدبر ويدرك من الحقائق عن بصيرة وقصد وإرادة واقتناع»[1].

ومن هنا وأمام هذه الكثرة التي فقدت أسباب الهدى نجد الدعاة في حيرة من أمرهم من لدن سيدنا نوح عليه السلام الذي كان يرى أنه دعاهم ليلا ونهارا فلم يزدهم دعاءه إلا نفورا، وأنه كلما دعاهم ليغفر الله لهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]، إلى النبي ﷺ الذي كان يقول: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] مما يبين أن «مهمة الرسول ﷺ.. ضخمة شاقة وهو يواجه البشرية وأكثرها أضله الهوى، وأبى إلا الكفر ودلائل الإيمان حاضرة»[2].

وإذا كانت الأكثرية يغلب عليها الكفر مما يصعب مهمة الرسل في العصور الغابرة فإن مهمة الدعاة اليوم أشق، إذ كثر بالمقابل دعاة الكفر، وهم مسلحون بعاملين أساسيين:

١ ـ تمكنهم من وسائل الإعلام والدعوة إلى الكفر، إذ سخرت لهم الأنظمةُ القائمة على مستوى العالم كل أجهزة الإرسال المرئية والمكتوبة والمسموعة، فعاثوا في الأرض فسادا.

٢ ـ كثرة جيوشهم التي استطاع الشيطان أن يجندها لهم باسم الحرية والتمدن، وما يزينه لهم من أعمالهم الخبيثة التي تتجدد أساليبها في كل يوم.

---

(١) نفسه.

(٢) في ظلال القرآن ج ١٩ ص ٢٧٥٠

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدور الذي يقوم به أعداء الحق من كل الطوائف، بما في ذلك أهل الكتاب الذين كان الأولى أن يقفوا إلى جانب أهل الحق يسندونهم ويعضدونهم، بدل أن يؤلبوا عليهم الناس فقال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وبسبب حب الكثير من أهل الكتاب لطرق الصد عن سبيل الله تجتمع كثرتان؛ الكثرة التي استفحل فيها الكفر، والكثرة التي تدعو إليه وتحببه للناس حسدا لهم وهم لا يعلمون.

وهذه أيضا تكاد تكون طبيعة بشرية إذ نجد الناس يميلون بشدة إلى أن يشاركهم الناس في الشر في الوقت الذي لا نجد لهم الحماس في أن يشاركوهم في الخير إلا قليلا، وهو ما تبينه الآية التالية: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقد لاحظت هذا الأمر عيانا عندما حضرت ملتقى دوليا بجامعة وهران تحت عنوان «الإنسان في الكتب السماوية» حضره عدد من رجال الدين المسيحيين على رأسهم الأستاذ تيسي (*) ممثل رجال الدين المسيحيين في الجزائر، وكانت محاضرته تحت عنوان «المهمشون في الإنجيل» وكانت محاضرتي بعنوان «اليتيم في القرآن الكريم» مما جعلني أسأله: إن أحق الحقوق للطفل علينا أن نقدم له صورة حقيقية عن العقيدة وعلى رأسها مصادر العقيدة وهي الكتب السماوية، وأنتم معشر رجال الدين المسيحيين تعلمون أن الحقيقة في القرآن، فلماذا لاتعلّمونها الأطفال لتتخلصوا من المسؤولية يوم القيامة؟ فأجاب: إننا لانفعل ذلك لأننا يهود ومسيحيون!!!

(*) على الرغم من قول تيسي ذلك فإني أرى أنه سيدخل الإسلام في وقت قريب لمعرفته بالعربية مما يعينه على الاطلاع على القرآن الكريم بنفسه.

وهكذا يتجلى لنا أن علماء المسيحيين يتعمدون الإصرار على نقل الكفر إلى ذريتهم مما يشكل توجيها أساسيا في التربية يعين الشيطان على الاستكثار من أهل الكفر، فإذا علمنا أن المساحة التي تنتشر فيها المسيحية في العالم كبيرة بحيث تعد أول ديانة في العالم، تبين لنا مفهوم الكثرة بفهم سببه، وصدق الله العظيم إذ قال : ﴿ **قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ** ﴾ .

وهكذا تتجلى لنا سورة واضحة عن الموضوع، فنتبين بما لا يدع مجالا للشك أن الأكثرية يغلب عليها الكفر، ولكن ـ كما رأيت ـ الكفر الذي بيناه كفر عقيدة تتصل بالله وكتابه ورسله واليوم الآخر، ولم تمس الدراسة بعد جانبا آخر من الكفر هو كفر النعمة، وهو ما سنعرضه في مطلب لاحق، وستكتمل الصورة بشكل أوضح حينما نتحدث عن الأقلية ونعرف أن الشيطان توعد الإنسان بالاحتناك والتضليل ﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٦٢] .

* * *

● **المطلب الثاني : الكفر بالنعمة**

في سورة النحل تستوقفنا آيات متتابعة تعرض نعم الله على الإنسان؛ من خلق، وإعطاء سمع وبصر وفؤاد وسكن وتسخير أنعام وسرابيل للوقاية من حر الطبيعة ومن بأس الإنسان نفسه، ثم تختم بحكم يستغرق سلوك الإنسان إزاء هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، وهو قوله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [النحل: ٨٣] .

ومعنى الآية أنهم ينكرون نعمة الله وهم يعرفونها، ويعرفون مصدرها، وإنما دفعهم لهذا الإنكار إصرارهم على الكفر، والتعبير بصيغة الأكثرية هنا للتعبير عن الغالبية « فظاهر كلمة ﴿ **أَكْثَرُ** ﴾ وكلمة ﴿ **الْكَافِرُونَ** ﴾ أن الذين وصفوا بأنهم الكافرون هم غالب المشركين لا جميعهم، فيحمل المراد بالغالب على دهماء المشركين، فإن معظمهم بسطاء العقول بعداء عن النظر، فهم لا يشعرون بنعمة الله، فإن نعمة الله تقتضي إفراده بالعبادة فكان إشراكهم راسخا، بخلاف عقلائهم وأهل النظر فإن لهم ترددا في نفوسهم، ولكن يحملهم على الكفر حب السيادة في قومهم »[1] .

والحال أن الحكم يشمل جنس الإنسان عالمهم وجاهلهم، عامتهم ودهمائهم، ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا قليل، كما سيتبين لنا في فصل عقيدة الأقلية في القرآن الكريم .

ويبين ذلك سلسلة الآيات السابقة لهذه الآية لا سيما قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ [النحل: ٨١] فالآية امتنان بنعمة الإلهام إلى وسائل الوقاية من الحر والقر، والإقامة

---

(١) التحرير والتنوير : ج ١٤ ص ٢٤٣ .

والسكن وجملة ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تذييل لما ذكر من النعم، وإذا كانت (لعل) للرجاء فإنها استعملت هنا في معنى الرغبة في أن يدخل الناس في الإسلام الذي ينتهي فيه الإنسان إلى شكر الله على نعمه [1]، ولكن طبيعة الإنسان يغلب عليها جانب الكفر بالنعمة مما يجعل ذلك الرجاء لا يتحقق إلا بنسبة ضئيلة.

ومن يستقرئ القرآن في هذا السياق سيصل حتما إلى هذه النتيجة إذ أن آيات القرآن تتعاضد كلها على بيان هذه الحقيقة، ففي سورة إبراهيم نقرأ آيات تعرض النعم التي سخرها الله للإنسان ثم تعقب بما يؤكد هذه الحقيقة، يقول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

[إبراهيم: ٣٢-٣٤]

هنا في هذه الآيات يفتح كتاب الله ليوجه أنظارنا لكتاب الكون فيفتحه على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى، وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر، السماوات والأرض والشمس والقمر، الليل والنهار، الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض، البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر في جاهليتهم لا ينظرون ولا يقرؤون ولا يتدبرون ولا يشكرون، إن الإنسان لظلوم كفار، يبدل نعمة الله كفرا ويجعل لله أندادا ... نعم كثيرة سخرها كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه وما يناسب نشاطه وراحته ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع ﴿ وَإِن تَعُدُّوا

(١) التحرير والتنوير ١٤ / ٢٤١

﴿نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ فهي أكبر بكثير من أن يحصيها فريق من البشر أو كل البشر... فنعم الله مطلقة فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك .. وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تبدلونها كفرا ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (١) .

ولا شك أن كفر النعمة شامل بهذا المعنى للكفر بالنعمة المادية، والكفر بالنعمة الروحية التي على رأسها الكفر بالآيات التشريعية التي نزلت لإسعاد الإنسان فكفر بها وأحل نفسه بذلك دار الخسران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [ابراهيم: ٢٨] . إذ فسر بعض العلماء ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ بأرض بدر وفسرها بعضهم بجهنم، وهما معا مقصودتان؛ لأن الكفر هنا يعني كفران النعمة وهو ضد الشكر «ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أنه بوأهم حَرَمَه وأمَّنهم في سفرهم وإقامتهم وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة، ثم أنعم عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه - عليه وعلى الأنبياء جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وهداهم إلى الحق، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدلوا شكر ذلك بالكفر به، فنعمة الله الكبرى هي رسالة - محمد ﷺ - ودعوة إبراهيم وبنيه - عليهم السلام»(٢).

لقد كفر الناس بنعمة التشريع كما كفروا بالنعم المادية التي لا تحصى، والحق أن كفران النعمتين يحل الأمم والأقوام والشعوب دائما «دار البوار» الذي هو الخسران والهلاك، الذي يصيرون إليه نتيجة كفرهم وبعدهم عن الشريعة التي بها يصلح حالهم وتنضبط دولهم وسلوكاتهم ،كالدار التي يسكنونها، وذلك بيان بالتشبيه المادي المحسوس المرأي لئلا يخطئ الناس في المصيبة حين يرونها قد حلت بالوطن أو بالأمة كلها فيظنون أنها مسألة عادية وليس لهم فيها يد، إذ هم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج١٣ - ص ٢١٠٦ - ٢١٠٨

(٢) التحرير والتنوير ج١٣ ص ٢٢٨

أنفسهم الذين أحلوا قومهم دار الخسران حين بدلوا نعمة الله كفرا كما سنفصل في الباب الأخير.

إن الآية هنا تقدم سنة اجتماعية تاريخية ترتبط فيها المقدمات بالنتائج، لأن الحياة الاجتماعية للبشر قائمة على قوانين منظمة ودقيقة تتضافر فيها الحياة النفسية بالسلوك الاجتماعي، ويترابطان ترابطا دقيقا لا يعلم دقته إلا الله سبحانه وتعالى، ولذلك لم يوكل أمر التشريع للبشرية؛ لأن تشريع الإنسان لنفسه لا يملك الهيمنة على تلك العلاقات المتداخلة بعمق، فيؤدي تشريعه ـ بسبب ما يعتريه من نقص ـ إلى الفوضى والاضطراب مما يؤدي في النهاية إلى الدمار وإلى (دار البوار).

وأعتقد أن هذه العلاقات القائمة بين التشريع وطبيعة الدار التي ينزل بها الإنسان أو تحل بها الأمة هي التي تفسر لنا من الناحية الاجتماعية معنى قول الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٦].

فهناك علاقة وطيدة، علاقة محكمة بين الشكر أو الكفر من جهة، ودوام النعمة أو زوالها من جهة أخرى، كما تبينه الآية الثالثة من سورة هود: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، يقول قطب رحمه الله: «ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة: حقيقة زيادة النعمة بالشكر، والعذاب الشديد على الكفر، نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق، فلا بد أن يتحقق على أية حال فإذا أردنا أن نرى مصداقا في الحياة ونبحث عن أسبابها المدركة لنا فإننا لا نبعد كثيرا في تلمس الأسباب»[1] ويرجع سيد قطب أسباب ذلك إلى:

---

(١) في ظلال القرآن: ١٣/ ٢٠٨٩

(أ) أن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية .

(ب) إن النفس التي تشكر الله على نعمه تراقبه في التصرف بهذه النعمة، فتتصرف فيها بحكمة، بعيدا عن البطر والاستعلاء أو استخدامها في الشر والدنس والفساد .

(ج) تزكية النفس، لأن السببين السابقين، يدفعان النفس للعمل الصالح وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها فيكونون له عونا، ويصلح روابط المجتمع فتنمو الثروات في أمان .

(د) إهلاك الناس إما بعذاب دار البوار، وقد يتضمن محق النعمة عينا بذهابها أو بسحق آثارها في الشعور، وقد يكون عذابا مؤجلا إلى لحظة من لحظات الدنيا أو إلى الآخرة، فهو واقع؛ لأن الكفر بنعمة الله لا يمضي بلا جزاء[1] .

وخلاصة كل ذلك أن الشكر على النعمة ليس فقط شعورا في النفس أو ترديدا للحمد بالقول، ولكنه تصرف سليم في الفعل يورث الخير تبعا لتعميق ذلك الشعور ومستواه، فالطالب الذي يتعمق إحساسه بالشكر يواظب على العمل الحسن الذي يجعل النتائج مرضية، بل يواظب على تحسين طريقة الأداء لأعماله فيكسب منهجا يعينه على إتقان العمل والتعجيل بالنتائج، وهكذا يتبين لنا من المنظور الاجتماعي أن العلاقة بين النعمة والشكر عليها أو الكفر بها علاقة سننية شديدة الترابط، ولذلك قال : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه : ١٢٣ – ١٢٤] .

تلك هي العلاقة بين النعمة والشكر أو الكفر، ولكن ـ مع الأسف الشديد ـ لقد ظلت البشرية في أكثريتها بعيدة عن الصواب مما جعل الغالبية العظمى ـ كما تبينها الآيات ـ تعيش على الكفر بالنعمة متناسية أفضال الله عليها؛ فضل الحياة بعد الموت، وفضل الهداية والتوحيد، وفضل الموعظة والتنزيل، وفضل الرزق،

---

(١) نفسه : ١٣/ ٢٠٨٩ .

وفضل التسخير، كل هذه الأفضال قوبلت من الأكثرية بالكفر وقلة الشكر أو عدمه.

ففي سورة البقرة نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

فالآية تقص باختصار خبر قوم من بني إسرائيل، الأشهر أنهم خرجوا من ديارهم فرارا من وباء الطاعون الذي نزل بساحتهم فأماتهم الله ميتة العقوبة التي تعد الحياة بعدها ممكنة، بخلاف موت الأجل التي لا حياة بعدها إلا القيامة الكبرى [١]، وكان عددهم يزيد على عشرة آلاف، لأن صيغة «ألوف» جمع كثرة، ولا يقال في عشرة فما دونها ألوف[٢].

ولما خرجوا من ديارهم ﴿ **حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ تبين سوء اعتقادهم الذي ترتب عليه من الناحية الاجتماعية « تخلية البلاد، ولا تخلوا من مستضعفين يصعب الخروج منها، ولا يتأتى لهم ذلك، ويتأذون بخلو البلاد من المياسير الذين كانوا أركانا للبلاد ومعونة للمستضعفين ...فهذه فائدة النهي عن دخول أرض بها الطاعون أو الخروج منها ...قال النبي ﷺ في الوباء إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا نزل وانتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[٣].

ولهذا السبب استحقوا عقوبة الموت التي بقدر ما هي عقوبة تستوجب الاعتبار فهي راحة من تعب الفزع والخوف من الوباء مما يستوجب الشكر بعد الإحياء.

وهكذا يصبح عظيما؛ فضل الإماتة الذي هو أشبه بموت أهل الكهف من حيث غياب الشعور كالراقد رقدة طويلة تخلف الراحة بعد التعب، وفضل البعث والإحياء بعد الموت والرقاد الطويل.

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) نفسه ٣/ ٢٣١.

(٣) نفسه ٣/ ٢٣١.

وكل ذلك يستوجب الشكر على الأفضال والنعم، ولكن هؤلاء القوم لم يعرفوا قدر النعمة في حدودها وكفروا بالمنعم فلم يحمدوه، ولذلك ختمت الآية بقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ لقد ذيلت آية القصة بما يشبه قاعدة في السلوك والأنفس والمعتقدات تفيد التنعيم لتبين أن هذا ديدن أكثر الناس في قلة الشكر على نعمة الحياة.

وكما لم يشكر الناس ربهم على نعمة الحياة فهم لم يشكروه على نعمة الهداية وفضل الإهداء، ففي سورة يوسف نقرأ قول الله تعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [يوسف : ٣٨] .

الآية هنا تعرض خطَّ أهل الخير في اتباع ملة الحق، وهي التوحيد، بعد أن عرضت الآيات السابقة تجنبهم وتركهم ﴿ **مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ ثم تذيل بما يفيد أن هذا الاتباع هداية كبرى من فضل الله مما يستوجب الشكر، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ لأنهم لايدركون أن «الهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين، وهو فضل في متناول الناس جميعا لو اتجهوا إليه وأرادوه، ففي فطرتهم أصوله وهواتفه وفي الوجود من حولهم موحياته ودلائله، وفي رسالات الرسل بيانه وتقريره ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه»[1].

من الواضح أن الآية تشير إلى «عموم الفضل»، يتبين ذلك من قوله ﴿ **ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ** ﴾ ، فهو شامل، ولكن الشكر لم يكن من الأكثرية، وإنما كان ممن اهتدوا إلى قيمة الشكر في الحياة البشرية، ومن الواضح أن هذه الأقلية الشاكرة كانت من بيت النبوة مما يبين دور الإرث التربوي في نقل

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢/١٩٨٩ .

الخصال إلى البنين والأحفاد، وهو الأمر الذي سبقت الإشارة إليه في بيان أسباب إصرار الأكثرية على الكفر، فالهداية ليست حكرا على أحد، لكن هناك سننا تحكم المجتمعات في عقائدها كما تحكمها في نظامها الاجتماعي والأخلاقي، بحيث يرث الولد عن طريق التربية عقيدته فترسخ في نفسه، حقا كانت أو باطلا، وهذا ما يفسره الرسول ﷺ بقوله «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء»[1]، هكذا تنتقل العقيدة من الآباء إلى الأبناء ثم إلى الأحفاد، مما جعل الأكثرية يغلب عليها طابع كفر النعمة بما في ذلك نعمة الهداية التي يتنكرون لكل أسبابها بما في ذلك أصوات الأنبياء وهي أعظمها.

ولعل الآية التالية من سورة يونس تبين ذلك بوضوح؛ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [يونس: ٥٧ – ٦٠].

إن الآيات تبين – في نداء يشمل الناس جميعا– أن ما جاءهم هو موعظة ليهتدوا بها ويتعظوا بما جاء فيها، ليتحقق لهم الشفاء من داء التقليد العقدي الذي كرسته العادات وأساليب التربية التي نشأ عليها الآباء بعد أن فسدت فطرتهم، ومن ثم فإن هذه المواعظ، وهذه الآيات القرآنية رحمة ينبغي أن يفرحوا بها، ويشكروا الله عليها.

لكن الناس بدل أن يشكروا الله على هذا الرزق العظيم، تدخلوا في آياته وحرفوها في واقع حياتهم تبعا لأهوائهم التي لا مستند لها ولا دليل[2]. فجعلوا

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٩٢-ورقمه : ٤٤٩٧-١٣٥٩ وانظر صحيح مسلم: ٢٦٥٨

(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٢/ ٤٢١ دار الفكر.

منه حراما وحلالا وكان ذلك فرية عظيمة وكذبة كبيرة كذبوها على الله، فزادوا في تضليل الناس ووسعوا في رقعة الأكثرية مما جعل الآيات تختم بقوله تعالى : ﴿ **وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ [يونس : ٦٠] فالله ذو أفضال كثيرة على الناس أفضال الهداية وأفضال الرزق، وهما سنتان تنسجمان لتعديل الحياة البشرية، إذ خالق الأرزاق هو المشرع للبشرية في كيفية استخدامها لتحقق أغراضها، وما كان لشريعته أن تخالف خلقه، ومن ثم كان الله « ذو فضل على الناس بعد ذلك برزقه وفضله ورحمته التي أنزلها في منهجه هدى للناس وشفاء لما في الصدور ليهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم الذي يزاولون به خير ما في إنسانيتهم من قوى وطاقات ومشاعر واتجاهات، والذي ينسقون به بين خير الدنيا وخير الآخرة، كما ينسقون به بين فطرتهم وفطرة الكون الذي يعيشون فيه ويتعاملون معه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك، فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه وإذا هم يشركون به غيره ثم يشقون في النهاية بهذا كله، يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذي هو شفاء لما في الصدور » (١) .

وموقف الأكثرية يظل هو هو لا يتغير، فكما أنهم لم يشكروا الله على أفضاله في الهداية والشريعة والخلق والحياة فإنهم لم يشكروه على الرزق المادي الذي ينتفعون به في كل حين، ففي سورة النحل نجد الآيتين الآتيتين : ﴿ **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧١-٧٢] .

موضوع الآيتين هو النعم وموقف الناس منها، ولكن الآيتين لا تستخدمان

---

(١) في ظلال القرآن : ج ١١ / ص ١٨٠٢-١٨٠٣ .

لفظ « الأكثرية » الذي بنينا عليه الدراسة؛ وإنما اكتفتا بضمير الجماعة في السؤالين الأساسيين في سياقهما وهما قوله:

١- ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

٢- ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

ويبقى اللفظ ليتأخر في سياق السورة لغاية الآية (٨٣) ليعرض الموضوع في أسلوب خبري هكذا ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [النحل : ٨٣].

وهكذا يتجلى لنا من ترابط هذه الآيات كيف يكون موقف الأكثرية من نعم الله دائما هو الجحود والكفر، ففي الآيات الأولى يتداخل التفاضل بين بني الإنسان الذي قد يكون الهدف منه هو الابتلاء والامتحان، مع رزق الجو الأسري الذي يتميز به الإنسان على أجناس الحيوان، مما يبين قيمة هذه النعمة التي تستوجب الشكر، ولكنها قوبلت بالباطل وكفر النعمة وجحودها، وفي الآية الأخيرة يبين أن هذه الأكثرية لم تكن تكفر عن جهل بالحقيقة التي تصدر عنها هذه النعم، حتى توجه عبادتها لغير جهتها الصحيحة، وإنما كانت تعرف نعمة الله وتنكرها عنادا، وذلك مما جعل فعلهم كفرا صريحا ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ إذ ليس بعد هذه الأدلة الحسية والبراهين المادية التي تليق لإقناع حتى البليد الذي فقد القدرة على الإدراك المعنوي إلا هذا الحكم عليهم، والذي يبين أن كفرهم ناجم عن العناد بعدما تحقق أنهم يعرفون مصدر جميع أنواع النعم التي سخرها المولى تبارك وتعالى للإنسان.

ولعل الآية الواحدة والستين من سورة غافر تكشف عن جانب آخر يوضح موقف الأكثرية من النعم المسخرة للإنسان، يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر : ٦١].

الله الذي خلق الإنسان يعلم مقدار حاجته إلى الراحة والسكون، ويعلم

حاجته إلى السعي في الأرض لتحقيق أسباب العيش، ولذلك سخر له ما في هذا الكون من أسباب تيسر له سبل العيش وطريق الراحة والسكون، فكما خلق له على المستوى الاجتماعي زوجة ليسكن إليها، فقد جعل له في الحركة الزمانية للكواكب فترة الليل ليسكن فيها فيجد راحته، وفترة النهار مبصرة ليسعى فيها لجلب الرزق، وهكذا نجد «تقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم، ولو كان أحدهما سرمدا، بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة، فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس»(١).

إن الإشارة إلى أن أكثر الناس لا يشكرون على فضل التسخير الكوني للإنسان تبين أن الإنسان يعيش إما على الغفلة الناجمة عن بلادة في الحس، وموت في الشعور، وإما على جحود وكفر بالنعمة على الرغم من ظهور آثارها لكل ذي عقل، ذلك لأن كل عاقل يدرك «أن بناء هذا الكون على القاعدة التي بناه الله عليها ثم سيره وفق الناموس الذي قدره الله له، هو الذي سمح بوجود الحياة الإنسانية في شكلها الذي نعهده، ووافق حاجات هذا الإنسان التي يتطلبها تكوينه وفطرته، وهو الذي جعل الليل مسكنا له وراحة واستجماما والنهار مبصرا معينا على الرؤية والحركة»(٢).

ولكن الإنسان – بسبب الغفلة وبلادة الحس– عطل عقله في تأمل الكون فلم يدرك هذه النعم، وترتب على ذلك قلة الشكر، بل إن الآيات التابعة لهذه الآية تبين أن تاريخ البشرية يثبت أن الإنسان أفاك وكذاب وجحود لنعم الله، قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ [غافر : ٦١–٦٣]، فالناس يصرفون عن تأمل الآيات، ويصرفون عن شكر الله

---

(١) في ظلال القرآن: ج ٢٤ ص ٣٠٩٤ .   (٢) نفسه ٢٤/٣٠٩٢ .

على نعمه في كل زمان بلا سبب ولا حجة ولا برهان، وإنما يفعلون ذلك لأنهم ﴿ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾، فليست مشكلة الإنسان في عدم المعرفة والوقوف على الأدلة وإنما مشكلته الأساسية في الجحود، وذلك ما نصت عليه آية أخرى بوضوح : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦-٨] ، هذا هو طبع الإنسان الذي يقْسم الله عليه بقوله ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . . . ﴾ ، إن الذي يقسم الله عليه في هذه السورة هو « حقيقة في نفس الإنسان، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . . إن الإنسان ليجحد نعمة ربه وينكر جزيل فضله ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة . . . هذا طبعه، مالم يخالط الإيمان فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا »(١).

وخلاصة القول : إن الأكثرية في تاريخ البشرية تصنف من حيث العقيدة - مع كل أسف - في خانة الكفر بنوعيه : كفر العقيدة إذ أكثر البشر لا يوحدون الله ولا يخلصون له عبادتهم ، وكفر النعمة ، إذ لايشكرونه على أفضاله الكثيرة التي بينها قول الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾.

وسبب توجه الأكثرية لطريق الكفر يعود للطبع الذي طبع عليه ابن الإنسان في الحياة إما نتيجة انهماكه في ملذات الدنيا فأنساه الشيطان ذكر ربه فأصبح من الغافلين، وإما نتيجة الإرث الذي رسخته فيه أساليب التربية العقدية التي نشأ عليها في مجتمعه .

وهو لهذين السببين يعرف تماما هذا الخلق في بنيته النفسية، ويشهد على كنوده لربه، والكنود في اللغة الكفر بالنعمة والعصيان لله.

ولما كانت الصفة الغالبة على البشر هذه، فإن الله سبحانه وتعالى قد أقسم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ج٣٠ / ٣٩٥٨

له بذلك ليوجه نظره إلى هذا الطبع لعله يعمل على تربية نفسه وذريته على خلق الشكر والتوحيد لصاحب الفضل الأكبر فقال : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** ﴾

[العاديات : ١ – ١١]

ولعله لقيمة هذه السورة في بيان صلب هذه المشكلة الإنسانية قال رسول الله ﷺ : « من قرأ سورة العاديات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا »، ذلك لأن موضوعها كما يقول البقاعي هو « الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم وهو العاديات والمقسم عليه وما عطف عليه وقد علم أن اسمها أدل شيء على ذلك لما هدى إليه القسم والمقسم عليه »[1].

* * *

(١) البقاعي : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ج ٨ ص ٥٠٨